في الناس

من عاش بين اشرارها

بقلم
منير حامد العامودي

كانا ولدين لشيخ . وضع العمة ، ولزم الدكة ، يقيم الخمس لأوقاتها . ويصوم كامل رمضان ، ويفعل ما يؤمر به الناس .

وسكان الريف ، وأهل القرى . على عادتهم ، يقيمون وزنا للدين ، أكثر مما يقيمه أهل المدن وسكان الحاضرة . فكان على العادة ، أيضاً ان يسير الولد في سبيل أبيه ، وكان عجباً أن ينكب ، ويضرب في غير طريق . .

ولد الشيخ « درويش » شيئان متناقضان ، هذا نهج المنهج ، فصار شيخاً ، ولزم القريه وذاك (ضل) فسكن الحاضرة وطاق الريف . . هكذا كان يتحدث أهل القرية . . [شيئان متناقضان] ولو علموا لعجبوا وتغير الامر . .

وفرح الوالد واقبل على ولده الشيخ يقبله ، ويدعو له بالصلاح والبركة . . وحزن وبكى وازور عن ولده والحذاء فمقته اشد المقت ، وأطال حبل القطيعة ، حتى نسيه او كاد ، فقد رأى الاب ان ولده ـ محمد ـ قد استمع الى نداء السماء ، ونهج سبيل محمد ـ ص ـ ، فأحاط نفسه بما هو زعيم له بالجنة . . والحور العين . وكان ـ محمد ـ هذا شديد النسك ، زاهداً في الدنيا ، كارها لها اشد الكره . . وكان هذا مما يزيد في محبة الناس له . . واحترامهم له . . ورهبتهم منه . لان الشيخ كان يملك صوتا لا يكاد يصل الى السماء حتى يقع في اذن الله . .

وانطلق الشيخ ـ محمد ـ من القريه والتزم ما هو أشبه بالغار لانه وجد أن الاقامة مع الناس ، لا بد وجالبة معها شراً وسوءاً ومفسدة . استقر قرب الغار لا يسجد حتى يقوم ولا يقوم حتى يسجد . . وكان مع ذلك لا يعرف غير القرآن وحفظه على ظهر قلب . . وحاول الاجتهاد فيه . . فقد مر باسية منه ذات يوم تقول : ـ وحرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ـ ورأى ان ذكر لحم الخنزير في القرآن حرام فأبدل وقال وحرم عليكم الميتة والدم ولحم الخروف ـ .

اما ـ خليل ـ فقد هبط المدينة والناس يجهلون من امره كل شيء . وضرب فيها يسعى ، فلم يجد غير ان يرقع الاحذية في حانوت بسيط ، اتخذه له في احدى الحارات القديمة .

* * *

وغربت الشمس مرات . امتد معها الزمن . ومات الشيخ ـ درويش ـ فحزن سكان القرية حزنا شديداً . فلقد كان تقيا صالحا . وجاء أهل القرية الى ولده الشيخ يدعونه ليسكن القريه ويترك الغار ، ويرث مكان ابيه بعد أن مات غير أنه لم يرض ، واصر على البقاء . نساكا زهاداً يتجنب مواطن الزلل ، ويحذر بواعث الفساد . . ورجع الناس الى قريتهم ، ويبكون حظهم ، معدمين من بركة هذا الشيخ . فعينوا عمدا لهم . شيخا يفسر القرآن كما يشاء له التفسير ، ويشرحه كما حفظه على ظهر قلب . ومرت ذات ساعة بخاطر الشيخ ـ محمد ـ صورة لاخيه وهو فتى يافع . وكانت آخر صورة له منذ ذلك اليوم تخفق له قلبه . وقد اعتاد ان يخفق لمحبة الله وذكر الله ، والمحبة صورة واحدة ومعنى واحد . فعزم على أن يزور اخاه في المدينة . وان أحس بان الامر صعب . وأن فيه ما يوخزه كوخز الابر . واخذ سلة بيده فملأها من ماء زلال كان يجاوره طيلة أيامه . وحمله معه الى اخيه .

ووصل المدينه ، فسأل عنه ، فقادوه الى مخزن كبير تصنع فيه الاحذية وتباع ولقي الاخ اخاه . فكانت ساعة لم يشهد مثلها أحدهما في تاريخ ايامه الماضيه . وكان يحز

في نفس الشيخ ، أن يرى اخاه يترك عمة ابيه ؛ فالتفت اليه وقال : كيف فعلت ذلك يا اخي ؟ . والناس من حول أبيك يحملون لك ما يثقل ويحز في النفس والقلب . ولقد كان أبوك - رحمه الله - يبكي ؛ ويشتد في البكاء ، والآباء لا يساعدهم غير الابناء . افهكذا فعلت حتى ضللت . ؟ ! بالله عليك ، قم واستغفر . ولنعد معاً الى القرية فتأخذ مكان أبيك وأخذ مكاني في الغار .

وكان « خليل » واجماً لا يتكلم . الا من دمعة انحدرت على خديه حين ذكر اسم أبيه غير انه قام وملأ سلة ماء وعلقها بجانب سلة أخيه . وقبل ان يمحو مظاهر الدهشة . اتجه صوب الباب وقال لأخيه : سأعود اليك بعد قليل .

ووزع الشيخ نظره بين السلة واخيه ثم رجع الى نفسه وقال : أصحيح ما أرى ؟ ! هل يستطيع أخي أن يفعل كما يفعل الناسكون والزاهدون !!؟ أخي . من عاش في المدينة ، حيث كل مفسدة ، وكل اثم وخطيئة ، يستطيع كما يستطيع شيخ اعتزل الناس وعاش في غار !؟

يا لله . اني لا اكاد اصدق . !

وانتبه الشيخ . فرأى امرأة بالباب . فخطت نحوه وحيته . غير انه أطرق ، وقد صبغه الحياء بوردة ولم يجب قالت :

أين خليل ؟!

فاجاب - وهو ينظر الى الارض - سيعود بعد قليل .

قالت : لقد وعدني بتسليم حذائي هذا اليوم . وفي هذا الوقت .

والتفتت الى واجهة المحل . ففرجدته ، واشارت اليه باصبعه وقالت له : هاهو هنا . اعطني اياه من فضلك .

وكان طلباً مليئا بالاخطار . فاجابها باقتضاب : لا استطيع

قالت : ولكني لا اطيق الانتظار . لابد من اخذه الان . .

— سيعود اخي بعد قليل .

آه ! . إذن أنت اخ خليل !؟ لابد من ان تعطيني إياه . وهل في هذا ما يغضب ويثير - - - ويكلف اخذ الحذاء من الواجهة وتسليمه الى امرأة ؟!

واضطرب الشيخ ، وكان شديد الحياء - - فمد يده الى الواجهة واخرج الحذاء - - وقبل ان يدفعه لها قالت : لا بد من تجريبه - . فلعله يخالف القياس .

واخذته بين يديها ووضعته على أرض المكان - - ودعت الشيخ ليلبسها اياه على عادة الحذائين فاجفل صاحبنا وقال : لا - - لا - - استغفر الله العظيم - استغفر الله العظيم - - واخذ يلعن الشيطان ويتلو آية [الكرسي]

ورأت المرأة ما يسر وما يضحك . . فالحت على الشيخ فحدثت يغنج ، ومالت بدلال . . وكان الشيطان قد وجد طريقاً له الى نفس الشيخ . . فرأى أن مصلحة أخيه تقتضي تلبية مثل هذا الطلب . . .

ومد يده كالخائف - - ورفع بصره قليلا - - فاذا هو يسمع صوت الماء يسقط على ارض المكان - - فالتفت فاذا هي بسلته واذا هو ماؤها - - وأحس صاحبنا بدوار عنيف كاد معه ان يسقط ، لولا ان ينتبه الى اخيه يدخل فيحل المسألة ونظر الى الحائط ونظر الى اخيه وقال :

تنظرون الى السراب فتخالونه خصبا من الماء العذاب - - وتمرون بالواحة النضرة ، فتنكرون جمال النخيل ، وطيب الماء - - تزورن الزبد فيخفيكم عن حقيقته بياض كاذب - - ويغيب عنكم أن تجدوا اللآلىء في الاصداف - - هكذا تتهمونني في الله - - عد الى غارك وامح كل أثر من آثارك فوالله ليس لك فيه خير - - وتعال الى هنا - - الى هذه المدينة حيث المفاسد والشرور والآثام - - فوالله ما أدرك أمرؤ الجنة وهو يخاف أن ينظر الى الخطيئة - -

وارتمى الكاهن على يد أخيه يقبلها - - ويستغفر - - وهو يقول :

رحماك - - يا رب - - تلك جهالتي أوردتني هذه الموارد - - فاغفر وتب لي - - انك غفور رحيم .

منير حامد العامودي .